(٤)

الأمل والتاريخ والكراهية

استخدم التنميط البروتستانتى، الذى نركز انتباهنا عليه الآن، العهد القديم بطريقة أصلية . إذ كان تشخيصًا على الطريقة اليهودية، من حيث إن الشخصيات فى العهد القديم تم تجنيدها؛ لتخدم بوصفها أيقونات پروتستانتية جديدة ـ أى أوليڤر كروموِيل أو چورچ واشنطن (أو حتى هنرى الثامن) مثل موسى الذى يقود شعب الله المختار هربًا من العبودية إلى الأرض الموعودة، على سبيل المثال . كما أن الپيوريتان فى انجلترا وفى نيو إنجلاند على السواء أغاروا على الشخصيات الدرامية فى العهد القديم لأخذ أسماء جديدة لأولادهم؛ وذلك تجنبًا لاستخدام أسماء القديسين (وهى تنتمى إلى العصور الوسطى ومغرقة فى كاثوليكيتها بشكل زائد). إذ إنهم أرادوا لأطفالهم أن تُسبغ عليهم فضائل الشخصيات التى اختاروها . وثمة وسيلة أخرى لتحقيق ذلك تمثلت ببساطة فى تسمية الطفل باسم الفضيلة، وحذف الاسم الأوسط ـ وهى آلية پيوريتانية شائعة فى تسمية الأطفال . وهكذا أضيف إلى معجم التسميات (للبنات أساسًا) أسماء مثل Prudence أى حصيفة، Faith إيمان، وGrace أى نعمة، وFelicity هناء، Verity حق، و Constance وفاء، وJoy فرح .

ولكن ما هو أشد خصوصية أنهم أغاروا على روايات العهد القديم ـ أى القصص القصيرة التى بنيت القصص الكبيرة عليها ـ ليجدوا متشابهات مع تجاربهم الخاصة ليس بهدف استخراج الدروس الأخلاقية فقط ولكن للتنبؤ بالمستقبل أيضًا؛ إذ إنهم آمنوا بشكل ثابت أن الكتاب المقدس يتحدث عنهم أساسًا، وليس عن القبائل القديمة فى فلسطين ابتداء . ولم يكن تاريخا، وإنما كان حكاية معاصرة ونبوءة، ولكن فى شكل تشخيصى أو مجازى كان يحتاج جهدًا كبيرًا للفهم . وهذه

طريقة مختلفة تمامًا فى تأمل الكتاب المقدس عن الطريقة الحديثة، حتى بين البروتستانت المحافظين، والتى تعيد الكتاب المقدس إلى التاريخ، وتعتبر أن التشابهات بين ذلك الزمان والآن مسألة مصادفة. وفى نيوإنجلاند القرن السابع عشر، كما كان الحال فى إيست إنجليا القرن السابع عشر، كانت إسرائيل هى الاسم الحقيقى للمكان الذى كانوا يعيشون فيه، كما كانوا هم الإسرائيليين فى نظر أنفسهم. ولا عجب فى أنهم أعطوا بعضهم بعضًا أسماء إسرائيلية.

وثمة توضيح جيد لعملية التفكير البروتستانتية الخارقة للعادة هذه يتمثل فى بداية أكثر المواعظ الكنسية الأمريكية شهرة، والتى تحمل عنوان «الخطاة بين يدى رب غاضب»، والتى ألقيت فى اينفيلد، بولاية كونكتيكت سنة ١٧٤١م، وألقاها چوناثان إدواردز (١٧٠٣ ـ ١٧٥٨م). وكان أحد المبشرين الرئيسيين الذين قادوا الصحوة الكبرى، وحركة إحياء الديانة الأنجليكانية فى فترة ما قبل الثورة والتوقعات الألفية فى نيو إنجلاند وغيرها من الأماكن فى العالم الجديد. (وكان ثمة إحياء مشابه يجرى فى الوقت نفسه فى انجلترا) وكانت خطبة إدوارذر على النص الوارد فى سفر التثنية من الكتاب المقدس (تثنية، ٣٢: ٣٥) «لى النقمة والجزاء. فى وقت تزل أقدامهم»، وهو النص الذى يجلب إلى الذهن الصور المألوفة عن ساحات المزارع فى الشتاء والممرات الموحلة:

فى هذه الفقرة تهديد بانتقام الرب من الإسرائيليين غير المؤمنين الأشرار، الذين كانوا هم شعب الرب المرئى، والذين عاشوا فى وسائل الرحمة؛ ولكنهم بغض النظر عن أعمال الرب المدهشة تجاههم ظلوا بلا عقل ولا فهم. وتحت كل زراعات السماء زرعوا الثمار المرة والسامة؛ كما تقول الفقرتان التاليتان لهذه الفقرة التى أوردنا نصها. والتعبير الذى اخترته للنص، سوف تزل أقدامهم فى الوقت المناسب، يبدو أنه يتضمن الفعال التالية، التى تتعلق بالعقاب والتدمير الذى تعرض له هؤلاء الإسرائيليون الأشرار...

وهو يتضمن، أنهم كانوا على الدوام معرّضين لدمار مفاجئ وغير متوقع. مثل ذلك الذى يمشى فى أماكن زلقة وهو معرض فى كل لحظة للسقوط، ولا يستطيع أن يتنبأ لحظة واحدة ما إذا كان سيقف أو سيسقط فى اللحظة التالية؛ وعندما يسقط

فعلاً يسقط فى التو دونما تحذير، وهو ما تم التعبير عنه أيضًا فى المزامير (٧٣ : ١٨ ، ١٩): «حقًا فى مزالق جعلتهم. أسقطتهم إلى البوار. كيف صاروا للخراب بغتة اضمحلوا فنوا من الدواهى».

وثمة شىء آخر متضمن هو، أنهم كانوا عرضة للسقوط بأنفسهم، دون أن تدفعهم إلى الأرض يد آخر؛ وكما أن ذلك الذى يقف على أرض زلقة لا يحتاج إلى شىء سوى ثقله لكى يقذف به إلى الأرض.

وكون السبب فى أنهم لم يسقطوا بالفعل، ولا يسقطوا الآن، هو أن الوقت الذى حدده الرب لم يحن بعد. لأنه يقال إنه حين يحين الوقت، أو يأتى الوقت المحدد، فإن قدمهم سوف تزل. ثم سوف يتركون؛ لكى يسقطوا حسبما يميل بهم ثقلهم. ولن يبقيهم الرب فى هذه الأماكن الزلقة أكثر من ذلك، ولكنه سوف يتركهم يذهبون: ثم فى هذه اللحظة نفسها سوف يسقطون فى الخراب، مثل ذلك الذى يقف على أرض زلقة متدهورة، على شفا حفرة، لا يمكن أن يقف بمفرده، وحين يتُرك يسقط فى الحال ويضيع.

والدرس المرعب الذى كان إدواردز يسوقه بالتدريج من خلال سلسلته الطويلة من الأمثال التى أخذها من العهد القديم هو أن مستمعيه يستحقون عقوبة دائمة، وأن رحمة الرب المحبة فقط هى التى منعت العدالة من أن تنفذ فى الحال. وعلى أى حال، فإن الأمثلة التى اقتبسها من العهد القديم قد أوضحت أيضا أن ذلك الذى تقبل رحمة الرب فى وقتها قد تم إنقاذه. وهكذا فإن العهد القديم قد أشار إلى كل من المشكلة وحلها. وكما تعامل الرب مع بنى إسرائيل القدماء فى الألف السابقة على المسيح، فإنه سوف يتعامل كذلك مع الأمريكيين فى القرن الثامن عشر، الإسرائيليين الجدد. وحين يسجل نص العهد القديم الرب يخاطب الإسرائيليين مؤنبًا بكلمة «أنتم»، فإن التنميط البروتستانتى يترجم ذلك على أنه مخاطبة جماعة المصلين هنا والآن والمجتمع الذى يمثلونه. وكان مطلوبًا من جماعة المصلين أن تقول لنفسها: إن كلمة «أنتم» فى العهد القديم هى كلمة «نحن» الآن.

ويبدو استخدام قوى آخر للتنميط البروتستانتى فى هذه الفقرة الأخيرة من موعظة إدواردز:

«حينما نهض الرب العظيم الغاضب ونفذ انتقامه الرهيب على الخاطئ المسكين، والشرير يعانى حقًا العبء الباهظ والقوة اللا محدودة لسخطه، فإن الرب حينئذ سوف يدعو الكون بأسره لكى يتأمل الجلالة الرهيبة والقوة العظيمة التى تشاهد فيه. إشعيا ٣٣: ١٢ ـ ١٤ «وتصير الشعوب وقود مكس أشواكًا مقطوعة تحرق بالنار. اسمعوا أيها البعيدون ما صنعت واعرفوا أيها القريبون بطشى. ارتعب فى صهيون الخطاة. أخذت الرعدة المنافقين. من منا يسكن فى نار آكلة. من منا يسكن فى وقائد أبدية» إلخ.

«وهكذا سيكون معكم أنتم يا من لم تؤمنوا، إذ ظللتم هكذا؛ فإن القوة اللانهائية، والجلالة ورهبة الرب القادر على كل شىء سوف تتعاظم عليكم، فى القوة التى لا توصَف لعذاباتكم. وسوف تعذبون فى حضور كل الملائكة، وفى حضور الحَمَل (المسيح)؛ وعندما ستكونون فى هذه الحال من المعاناة، فإن سكان السماء المجيدين سوف يتقدمون وينظروا إلى المشهد الفظيع، حتى يرى مدى غضب الرب القوى وقسوته؛ وعندما يرون هذا، فإنهم سوف يخرون وقد خلبتهم تلك القوة العظيمة والجلالة. إشعيا (٦٦: ٢٣ ـ ٢٤) « ويكون من هلال إلى هلال ومن سبت إلى سبت أن كل ذى جسد يأتى ليسجد أمامى. قال الرب. ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوا علىّ؛ لأن دودهم لايموت ونارهم لا تطفأ. ويكونون رذالة لكل ذى جسد». إنه غضب دائم إلى الأبد. وسيكون أمرًا مهولاً أن تعانوا هذه القسوة والغضب من الرب القوى العظيم لحظة واحدة؛ ولكن يجب أن تعاونوه بشكل خالد. ولن تكون هناك نهاية لهذا البؤس المرعب المروع». . . [وهلم جرا].

وإذ جلد سامعيه بالمشهد الوشيك لنار جهنم شبه المؤكدة ـ عرف هذا النوع من المواعظ الكنسية باسم «تبشير الرعب» ـ قذف إدواردز إليهم بطوق النجاة الأخير:

« ولاشك الآن كما كان الحال زمن يوحنا المعمدان، فى أن الفأس قد وضعت عند جذور الأشجار بطريقة خارقة للعادة، وأن كل شجرة لا تثمر ثمرًا طيبًا سوف يتم اجتثاثها وتلقى فى النار. ومن ثم ليستيقظ كل من خرج على المسيح ويهرب الآن من نقمة آتية. ونقمة الرب العظيم لاشك فى أنها تحوم الآن فوق جزء كبير من هذا الجمع: ليهرب الجميع من سدوم. . . . ».

كان من المفترض أن الرب راض بأن يكرر نفسه. ومنذ ذلك الحين، إذا حدث موقف فى الحياة اليومية مشابه لموقف تحدث عنه العهد القديم - مدينة سدوم الخاطئة، مثلا - فإن الرب سيجعل العاقبة مشابهة أيضًا. وكما دمر الرب سدوم، فإنه أيضا سوف يدمر المدن الخاطئة اليوم. وما ينطوى تحت ميثاق ما سوف ينطوى تحت ما يليه من مواثيق. وإذا كان شعب إسرائيل الجديد قد مكثوا فى مياه تشابه أو تساوى البحر الأحمر، على حين يحثّ مطاردوهم الخطى خلفهم، فإن الرب سوف يتدخل مرة أخرى (ربما بواسطة رياح شرقية قوية) لكى يقودهم عبره ويدمر أعداءهم. وكان تطبيق متشابهات العهد القديم شخصيا بدرجة أكبر كثيرا بحيث يعكس تأكيد البروتستانت على أن الرب يختار (ينتخب) الأفراد أكثر من (أو تماما مثل) اختياره للجماعات الكاملة. هذا التوتر بين الانتخاب الفردى والانتخاب الجماعى كان ملمحًا مستمرًا من أشكال البروتستانتية المأخوذة عن المذهب الكالفينى. وعادة ما كان المبشرون لا يحاولون حل هذا التوتر، ولكنهم كانوا ينتقلون بشكل مربك من شكل لغوى إلى شكل آخر. وكانوا يظهرون عدم اليقين، ومن ثم خطر التهلكة، الذى كان جزءًا من رسالتهم.

وإذا كان الإسرائيليون فى مشكلة مع الرب؛ بسبب عدم إخلاصهم للميثاق، كذلك فإن المسيحيين يعانون نفس المشكلة؛ بسبب عدم وفائهم بالعهد أيضا. وتمامًا مثلما كان يصدق هذا على الإسرائيليين عموما وعلى الأفراد الإسرائيليين، كان يصدق على المسيحيين بشكل عام وبصفة فردية أيضا. إذ كان يمكن أن يكون الفرد غير مخلص، كما كان يمكن أيضا أن يكونوا جميعا غير أوفياء.

وهكذا علمهم التنميط البروتستانتى أن العناية الإلهية التى يؤمنون بها بقوة لم تكن عشوائية أو هوائية. إذ إنه اتبع المبادئ والنماذج الواردة فى الكتاب المقدس التى يمكن السعى إليها واكتشافها. ومن ثم كان الكتاب المقدس رفيقا يوميًا مهمًا؛ لأنه يمكن أن يكشف كل الأسرار من كل نوع، ولم يكن تحديد خارطة الطريق إلى الأمام أقلها أهمية. وفى عالم غير مستقر للغاية، ومع وجود مبشرين مثل إدواردز أخذوا على عاتقهم ألاّ يجعلوه يبدو أقل من ذلك، كان الكتاب المقدس هو المادة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها بأمان. ولا غرو أن القراءة اليومية للكتاب المقدس كانت تعتبر ضرورة ملحة.

ومما يدعو إلى الدهشة قليلاً أن كثيراً من المؤلفات الشاملة للباحثين المسيحيين أخفقت تماماً فى ملاحظة مغزى هذا الشكل من التنميط البروتستانتى، وتعامل التنميط نفسه كممارسة عتيقة ماتت واختفت بشكل أو بآخر مع حركة الإصلاح الدينى. وهكذا فإن «Oxford Dictionary of the Christian Church» يحدد المادة تحت عنوان Types أى الأنماط فى خمسة عشر سطراً، تحددها كما يلى:

«فى اللاهوت فإن البشائر الدالة على المصير المسيحى موجودة فى أحداث وأشخاص العهد القديم. ومثلما كان بوسع يسوع المسيح نفسه أن يشير إلى يونس النبى (يونان) باعتباره رمزاً لإعادة تجسده، فإن القديس بولس كذلك وجد فى عبور الإسرائيليين البحر الأحمر نمط المعمودية، على حين كان ملكى صادق بالنسبة لكاتب الرسالة إلى العبرانيين هو الشكل السابق الذى يشبه المسيح. ويختلف النمط المسيحى عن القصة الرمزية فى الإشارة التاريخية بشكل لا يخطئه النظر... والتنميط مع التأكيد الرمزى المتزايد، قد استخدم كثيراً فى الكنيسة الباكرة...».

ولاذكر هنا للتنميط البروتستانتى؛ لأنه بغض النظر عن تأثيره الهائل، يعتبر الآن شيئا مرذولاً من الناحية الفكرية. والتنميط البروتستانتى هو سر الذنب فى البروتستانتية الحديثة. والحقيقة أن المذهب البروتستانتى الذى له تنميط من الكتاب المقدس من هذا النوع، والمذهب البروتستانتى الذى ليس له هذا التنميط، يختلفان عن بعضهما لدرجة أنه يمكن اعتبارهما نظامين منفصلين للإعلان؛ إذ إن كل ما يشتركان فيه هو أن أحدهما متداخل فى الآخر. وعندما نقول إن الأنجلو-أمريكيين فى القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر كانوا بروتستانت، فنحن فى خطر افتراض أن عقائدهم كانت قريبة من عقائد البروتستانت المحدثين. والحقيقة أن الحالة العقلية كانت مختلفة كلية. وأقرب مقاربة معاصرة لها ستكون شيئًا مثل مذهب كنيسة يسوع المسيح لقديسى اليوم الآخر (المورمون)، التى ما تزال تطبق نسخة أصولية من طراز القرن السابع عشر أو الثامن عشر. وفى بعض الأمثلة من الأدب المورمونى تعتبر حتى بعض الشخصيات المعاصرة مثل ونستون تشرشل شخصيات سبق تجسيدها فى الكتاب المقدس. وأن الأمة الأنجلو-أمريكية ما تزال بالقطع أمة مختارة. ومع هذا، فبينما التيار الرئيسى البروتستانتى الحديث الذى لم تعد تمثله التقاليد الرئيسية غير الأنجليكانية وغير الكاثوليكية فى بريطانيا وأمريكا

يصنع تعادلاً مباشرًا بين الدول الوطنية والشعب المختار، وبهذه الطريقة فإن النفوذ الكامن للتفكير السابق ما يزال قويًا. وكما سنلاحظ يمكن لرئيس مثل ريجان أو بوش أن يثير هذه الأفكار. كما أنها لم تكن بعيدة عن أفكار البريطانيين فى السنوات الحديثة.

والمادة التى كتبها أندرولوث عن التنميط فى « Oxford Companion to Christian thought » تشير إلى أن التنميط كان منهجًا معتادًا للمدرسين اليهود الربانيين؛ إذ إنهم كانوا يعاملون التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس) باعتبارها «مصدرًا ثقة للإرشاد عن كيفية عيش حياة تسر الرب داخل إطار الميثاق». والتنميط المسيحى نهب النصوص العبرية المقدسة ليس من أجل نصوص البرهنة على الوحى المسيحى فقط، ولكن لبيان كيف أن مجىء المسيح كانت له بشائر دائمًا - حتى بواسطة الكتّاب اليهود الذين لم يدركوا أن ذلك كان هو ما يفعلونه. وهكذا فإن قصة سقوط آدم وحواء كانت بشارة بتصحيح السقوط بالعمل الخلاصى للمسيح، آدم الثانى (ومريم هى حواء الثانية)؛ وقصة موسى وهو يخرج بنى إسرائيل من مصر كانت بشارة بالخلاص الذى قدمه المسيح للجنس البشرى، مع عبور البحر الأحمر باعتباره تشخيصًا سابقًا للمعمودية المسيحية؛ وقد نُظر إلى نشيد الإنشاد باعتباره احتفالاً بالعلاقة الخفية الصوفية بين المسيح والكنيسة؛ وهلم جرا.

وتحت تأثير آباء الكنيسة الأوائل (وهو لقب يتحدد عادة بمدى القرون الخمسة الأولى بعد المسيح) صار التنميط جزءًا من المقاربة المنهجية لفهم النصوص المقدسة. ووفقًا للوث، فإن أوريجن رأى طبقتين من المعانى فى النصوص المقدسة، معنى حرفيًا وآخر رمزيًا:

«هذا المعنى المزدوج قام المفكرون اللاحقون بتكبيره، فقد ميزوا الطبقات المختلفة داخل المعنى الأعمق فى أربعة معان للنص المقدس، وهو الأمر الذى صار معتادًا فى العصور الوسطى الغربية. هذه المعانى الأربعة كانت (١) المعنى الحرفى أو التاريخى. (٢) المعنى الرمزى (الذى كان يعنى عادة المعنى المسيحى، سواء كان مذهبيًا أو طقسيًا). (٣) المعنى الأخلاقى الذى كان يهتم بالسلوك المسيحى. (٤) المعنى التصاعدى الذى اهتم بمصير الحياة المسيحية. . . .

هذه المقاربة للنصوص المقدسة التى تأسست فى الغرب جزئيا على النضال فى سبيل الصرامة العلمية، النافرة من الحياة المسيحية، والتى وجدت فى المذهب المدرسى، ثم أخيراً فى الجدل والمناقشات التى تولدت عن حركة الإصلاح الدينى . . . وقد صارت هذه المقاربة التقليدية للنص المقدس أشد بعداً بفعل حركة التنوير وبروز منهج النقد التاريخى باعتباره الوسيلة الوحيدة لتفسير النصوص، بما فى ذلك نص الكتاب المقدس، بحيث ينزل بمعنى النص إلى القصد الأصلى للكاتب».

وصار التنميط الجدلى فى فترة ما بعد الإصلاح الدينى، شكلا شائعا منذ منتصف القرن السادس عشر، وساعده على ذلك مؤلفات مثل كتاب فوكس «Book of Martyrs». **وهكذا كان أعداء انجلترا هم أعداء الحرية والكتاب المقدس والرب: وهم عبدة الأصنام، يؤمنون بالخرافات، قساة، طغاة وفوق هذا وذاك أجانب تماما مثل أعداء بنى إسرائيل القدماء ـ فراعنة مصر وملوك بابل، وهكذا . والواقع أنه لم يكن من الضرورى أن تخرج وتفتش عن العدو؛ لكى ترى إذا ما يتصف بهذه الخصال حقًا. والتشابه مع بنى إسرائيل القدماء كان إجابة على السؤال بالإيجاب**. بيد أنه لا يهم كم مرة تم الادعاء فيها بأن الكتاب المقدس يقف إلى جانب الحرية؛ لأن هذا لا يجعله أمراً صحيحًا. وكلمة الحرية نفسها ترد مرة واحدة فى العهد القديم، ومرة واحدة فى العهد الجديد، ولكنها لم ترد فى أى من المرتين بالمعنى الذى يشار إليه هنا. إذ إنها تقترب من استخدام الفكرة بهذا المعنى السياسى الوارد فى سفر إشعيا (٥٨ : ٦ـ ٧) حيث يشرح النبى لماذا كان صائمًا:

«أليس هذا صومًا أختاره حل قيود الشر. فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عريانا أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك».

وما كان يحدث فى الحقيقة هو أن الكاثوليكية الرومانية، التى كانت عدو الأمة العتيق خلال الفترة التى تم فيها إرساء إحساس إنجليزى متمايز بالهوية، كانت توصف تحديداً بأنها عبادة أصنام قبل أى شىء، ومؤمنة بالخرافات، وقاسية طاغية كما أنها أجنبية طبعًا (أو على الأقل بأنها وكيل لقوى أجنبية) دونما حاجة إلى

الإشارة إلى البرهان الفعلى. لقد كانت شيئا من الأشياء التى يعرفها الجميع. والواقع أن التنميط فى العهد الجديد، والذى ارتكز إلى حد كبير على سفر الرؤيا، قدم محصولا أوفر من النعوت والأوصاف لهذا العدو الحقيقى (الكاثوليكية الرومانية): المسيح الدجال، الوحش، رجل الخطيئة، عاهرة بابل، المرأة ذات الثوب القرمزى. وهكذا فإن العدو هو سيد التنكر والتخفى، ماهر، مخادع، كذاب أشر، متآمر. وإذا لم يظهر العدو متآمرًا دساسًا فإن هذا مجرد جزء من الخداع. **وسفر الرؤيا يشرح كيف أن هذه القوى الشيطانية سوف يطاح بها فى المعركة النهائية فى مكان يدعى هرمجدون. وربما لا يكون مدهشًا أن الباحثين المحدثين ذوى العقليات الآخروية من كل الاتجاهات يستبعدون هذا باعتباره مجرد تعصب ليس جديرًا بالتأمل اللاهوتى الجاد. وبهذا فإنهم يقللون من دور واحد من أهم التأثيرات المكونة للثقافة الأنجلو-سكسونية على مدى القرون القليلة الماضية.**

وفضلاً عن ذلك، فإنه يجدر بنا أن نلاحظ أن كثيرًا من الصفات والخصال التى نسبها البروتستانت إلى الكاثوليك، وليس أقلها الميل إلى الانخراط فى المؤامرات المشئومة، مشابهة بشكل مذهل للصفات والخصال التى كان الكاثوليك ينسبونها إلى اليهود؛ إذ إن أحد أشكال الإحلال يعكس الشكل الآخر. ذلك أن الكاثوليك حينما اعتبروا أنفسهم خلفاء اليهود كشعب الله المختار، وقع اليهود فى براثن مبدأ أن من ليس معى فهو ضدى (إنجيل متى ١٢ : ٣٠) «من ليس معى فهو علىّ ومن لايجمع معى فهو يفرق» فقد وصفوا بأنهم أعداء لـ «الشعب المختار» سواء كانوا يرون أنفسهم على هذا النحو أم لا. إذ كان من المفروض أن يتصرفوا على هذا النحو. **ومن المنطقى أنه لكى تكون عدو عمل الرب يعنى أن تكون فى عصبة الشر. وهذا هو بالضبط كيف رأى الكاثوليك فى العصور الوسطى اليهود، وكيف رأى البروتستانت الكاثوليك بعد العصور الوسطى. وفى أعقاب طرد اليهود من انجلترا سنة ١٢٩٠م، بعد المزاعم القائلة بطقوس قتل الأطفال كان الموت ينتظر أى يهودى يعود إلى انجلترا. وبعد حركة الإصلاح الدينى، صارت ممارسة الكاثوليكية جريمة خطيرة فى انجلترا، وكانت عقوبة أن تكون قسيسًا كاثوليكيًا هى الشنق والسحل وتقطيع الأطراف الأربعة**. وكان البروتستانت الإنجليز أقل اهتمامًا بحلولهم محل اليهود فى ميثاق الرب لسبب قوى هو أنه لم يكن هناك يهود فى المملكة: أما فى

البلاد البروتستانتية التى كان بها يهود، مثل ألمانيا. فإن الطعن البروتستانتى المعادى لليهود غالبًا ما كان عنيفا بشكل خارق للعادة؛ **إذ إن مارتن لوثر الذى كان يتوقع فى البداية أن ينضم اليهود إلى النوع الجديد من المسيحية الذى نادى به، خاطب السلطات العامة فيما بعد فى ألمانيا ينصحها كيف تتعامل مع اليهود:**

«أولا: إشعال النيران فى معابدهم أو مدارسهم ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب، بحيث لا يرى أحد مرة أخرى حجرًا أو رمادًا لهم... ثانيا: إننى أنصح بإزالة منازلهم أيضًا وتدميرها؛ لأنهم يتابعون فى داخلها نفس الأهداف التى يتابعونها فى معابدهم. وبدلا من ذلك يمكن إسكانهم تحت سقف فى جرن، مثل الغجر. فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة فى بلادنا، كما يتباهون، ولكنهم يعيشون فى المنفى والأسر، وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

ثالثا: أنصح بأن كتب صلواتهم، وكتاباتهم التلمودية، التى فيها وثنية وأكاذيب، ولعنات وكفر يتم تعليمه، تنتزع منهم. رابعا: أنصح بمنع أحبارهم وربانيهم من التعليم منذ الآن فصاعدا ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف...».

وفى مناخ مثل هذا يمكن تصديق كل وشاية تقريبا مهما يكن الدليل الذى يناقضها قويًا. وفضلاً عن ذلك، فإن المجموعة التى استبعدت والتى لم تعد مختارة، يفترض أنها تتآمر لتدمير الجماعة التى خلفتها حسب رؤية هذه الجماعة. وهكذا فإن المؤمرات الكاثوليكية المزعومة والتى لا نهاية لها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتى تحمل بعض المصداقية فى انجلترا وأمريكا، تتماشى مع بروتوكولات حكماء صهيون ذات السمعة الرديئة التى ظهرت قبل الحرب العالمية الأولى داخل روسيا. وكانت «افتراءات الدم» التى ظهرت فى العصور الوسطى مثالاً سابقًا. وهناك صدى لنظريات المؤامرة هذه فى الطريقة التى كان كثير من المستعمرين الأمريكيين قد بدأوا يشكون فى دوافع البريطانيين قبل الثورة. وقد لاحظ كثير من المعلقين التشابه بين معاداة السامية ومعاداة البابوية، واللتين كانتا من الملامح العادية للوعى الأنجلو-سكسونى حتى وقت قريب نسبيًا. وما كانت هذه الانحيازات تشترك فيه هو أنه على الرغم من أن الناس العاديين المهذبين كانوا

يأخذون بها، ومع هذا فإنهم لم يكونوا واعين بالمرة أنهم منحازون. وبقدر ما كانوا يعترفون بأنهم لايحبون الكاثوليك أو اليهود، فإنهم كانوا يزعمون أن موقفهم عقلانى وتبرره الأدلة والبراهين. **والخوف من الإنجليز (الأنجلوفوبيا) فى أمريكا يمكن بالتالى رؤيته على أنه مشابه بديل لمعاداة السامية فى المسيحية ومعاداة الكاثوليكية فى البروتستانتية؛ ذلك أنه ميل إنسانى فى أن تظن أسوأ الظنون فى أولئك الذين استبعدوا أو استبدلوا بآخرين.**

كما أن هذا الأمر ليس أمرًا نظريًا خالصًا. إذ يمكن أن تكون له تطبيقات شاملة فى السياق الذهنى لأولئك الذين يصوغون السياسة الوطنية. وهناك أمثلة مهمة على هذا حتى فى التاريخ الحديث مثل أزمة السويس سنة ١٩٥٦م، فقد حدث فى سنة ١٩٥٦م أن أمريكا، التى كانت إمبراطوريتها القائمة على السيادة العسكرية والمالية تتوسع على مستوى العالم، اقتربت جدا من رفض حق انجلترا فى أن تكون قوة استعمارية. وبفعل هذا كانت صادقة تماما بحسب منطق الاستبدال.

ولم يحدث أبدًا أن كان التنميط بعيدًا حقًا عن الطقوس الدينية المسيحية، على الرغم من أنه حتى العصور الحديثة لم يكن أحد يظن أنه موضوع يستحق الاهتمام والدراسة بصفة خاصة. ولكن الجهود التى بُذلت لاستئصال مصادر معاداة السامية كلها من الفكر المسيحى قد حفزت على إعادة فحص كل الفروض السابقة، وهى عملية مازال أمامها شوط طويل حتى تبلغ الكمال.

وثمة دراسة عن المواقف الحديثة تجاه إسرائيل واليهود، تمت بين أعضاء كنيسة انجلترا، أوضحت أن مذهب الاستبدال كان ما يزال واسع الانتشار. وكانت وجهة نظر الغالبية أن الوعود الواردة فى النصوص المقدسة والنبوءات عن أرض إسرائيل قد تحققت فى شخص يسوع المسيح (وهو ما يعنى أنها قد تمت ومن ثم لم تعد قائمة)؛ وكان هناك رأى قوى للأقلية يقول إن رجوع اليهود إلى إسرائيل هو استكمال نبوءة الكتاب المقدس. ويقول كتّاب التقرير إن هذا الرأى اعتمد على المعنى الحرفى لنصوص منتقاة من الكتاب المقدس، وهى نصوص قد يجادل الكثيرون بأنها لا تأخذ فى الحسبان أيّا من الدراسات الحديثة أو الحقائق السياسية المعاصرة فى الشرق الأوسط. وكل من وجهتى النظر إحلالية استبدالية من حيث إنهما تنطويان على استبدال الميثاق اليهودى بميثاق مسيحى. والاعتقاد بأن عودة

اليهود متسقة مع النبوءة ليس رأيا محابيًا لليهود حسبما يبدو، لأن بقية النبوءة، تشير إلى تحول اليهود القادم إلى المسيحية، وبذلك يوفون بأحد الشروط الضرورية للقدوم الثانى للمسيح. **وبعبارة أخرى فإن هذه النظرية نظرة تنميطية للغاية. وبقاء مثل هذه المعتقدات وانتشارها بين الأعضاء العاديين فى كنيسة انجلترا أدهش القائمين على هذه الدراسة بشكل ما. إذ كانوا يتوقعون أن تكون مثل هذه الآراء قاصرة على بعض الطوائف الأصولية فى أمريكا. وحيث يحتمل أن تكون أوسع انتشارًا من هذا، وربما يكون كذلك عاملاً مكونًا وراء التأييد الأمريكى طويل المدى لدولة إسرائيل.**

ومهما كان الأمر، فإن كنيسة انجلترا أولت اهتمامًا بعملية الاستبدال المسيحية-اليهودية أقل بكثير مما أظهرته الكنيسة الكاثوليكية؛ إذ إنها على سبيل المثال لم تقم حتى الآن بتعديل طقوسها لتضمن استئصال أى شىء يعطى أية أرضية جديدة لمعاداة السامية. والاهتمامات الحديثة المتجددة فى الأسئلة التنميطية كانت لها تفسيرات أخرى. وكما يلاحظ أندرو لوث، فإن الإحياء الطقسى فى التيار العام الحديث للمسيحية أيقظ مجددًا الاهتمام بالموضوع؛ بسبب التفضيل الحديث للجذور الشعرية والمجازية فى معرفة الرب على التقريرات الحقيقية الفئوية. ومحاولات ربط الحقائق الدينية فى شكل فروض أقل جاذبية للخيال من استخدام السر النثرى، ومن الاستعارة المجازية الشعرية، أو الكناية التجسيدية. ومن الأمور المتصلة بهذا أيضًا أنه فى الكنيسة الكاثوليكية، فإن التأكيد المتجدد على جماعة المؤمنين باعتبارها «شعب الرب» كان قوة دفع لعملية التحرير فى زمن مجمع الڤاتيكان الثانى (١٩٦٢-١٩٦٥م). وقد صار مناقشة وحجة لصالح المسئولية الجماعية، ولصالح إعطاء وزن أكبر للعلمانيين، كما أنه طرح طريقة بديلة، أكثر أفقية للنظر إلى الكنيسة، بدلاً من الطريقة الهيراركية (أو الرأسية) الصارمة.

وما لم يُشر إليه لوث وغيره ممن كتبوا عن التنميط، هو مثابرة التنميط فى العرض البروتستانتى للنصوص المقدسة، لاسيما حين تكتسى مستوى عاليًا من الأهمية السياسية. وهناك قدر كبير من الأمثلة المعاصرة. فعندما خاطب الرئيس رونالد ريجان مجلس العموم البريطانى سنة ١٩٨٢م، فلابد أن أولئك الذين

يعرفون التنميط المتعلق بالكتاب المقدس قد راعتهم إشارته إلى «إمبراطورية الشر» - أى ذلك الجزء من العالم الذى كان يحكمه السوفييت - باعتبارها موازيًا لإمبراطورية بابل الجديدة التى أخذت اليهود فى الأسر البابلى سنة ٥٨٧ ق. م. وحقيقة أن اليهود لم يطلق سراحهم سوى عندما هزم الإمبراطورية وغزاها قورش الملك الفارسى، الذى يشير إليه سفر أشعيا على أنه «الممسوح من الرب»، هذه الحقيقة أخافت بعضًا من المعلقين العارفين من أن ريجان كان يرى نفسه صاحب قدر مشابه. أما أولئك الذين لا يعرفون التنميط من الكتاب المقدس فربما يكونون قد وجدوا أنفسهم على شفا الحرب العالمية الثالثة قبل أن يدركوا ذلك.

بل إن هناك استخدامًا أكثر حفاوة للتنميط على يد رونالد ريجان تمثل فى إشارته إلى أمريكا باعتبارها «مدينة تضىء على التل» وهو استخدام تنميطى لما ورد فى إنجيل متى (٥ : ١٤): «أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل». ولم يكن هذا بأى حال أمرًا فريدًا، ففى خطاب الوداع الذى ألقاه بعد نهاية رئاسته قال إن مصدره ليس هو الكتاب المقدس، ولكن المستوطن البيوريتانى چون وينثروب الذى عاش فى نيوإنجلاند القرن السابع عشر. وبمعنى ما يكون هذا تنميطًا مزدوجًا: أى الاستعارة من وينثروب الذى كان بدوره يستعير من العهد الجديد. أو هو حتى تنميط ثلاثى؛ فإن كلمات يسوع التى أشار إليها إنجيل متى هى نفسها تنميط؛ ذلك أن مستمعيه لابد وأنهم فهموا فى الحال أنه كان يلمح إلى جبل صهيون الذى بنيت عليه مدينة القدس على يد داود قبل ألف سنة(*). وفى الأدب اليهودى يكون صهيون مرادفًا للوطن اليهودى الذى يشتاق إليه المنفيون على البعد. أما فى الأدب المسيحى فإن صهيون يصير روحيًا فى عاصمة مملكة السماء، وبعبارة أخرى أنه ليس مكانًا حقيقيًا على الأرض (إلا عندما يكون هو أمريكا حسبما يرى چون وينثروب ورونالد ريجان).

(*) الثابت تاريخيًا أن القدس بناها اليبوسيون قبل داود بألف وخمسمائة سنة على أقل تقدير، واليبوسيون قوم من العرب من كنعان. وقد أطلق عليها اسم يبوس، وأور سالم؛ أى مدينة سالم الذى كان من آلهة الكنعانيين. وفى القرن العشرين قبل الميلاد زارها النبى إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء. - المترجم.

والسياق الذى جاء فيه النص (متى ٥ : ١٤) يقدم الحل، إنها موعظة الجبل، أى عرض يسوع المسيح لأخلاق جديدة جذرية للملكة الروحانية القادمة، وربما لم يكن ريجان يعرف هذا، على الرغم من أنه يُرجح أنه كان يعرف. أما وينثروب، فمن المؤكد أنه كان يعرف. وعبارة «مدينة على الجبل» فى نسخة الملك چيمس للكتاب المقدس التى لابد وأن ريجان كان يعرفها، هى مثل معظم الإشارات التنميطية ليست مجرد مجاز يستخدم فقط لوصف شىء ما. إنها مجاز يحمل رسالة؛ إذ إنها تقول ماهو كائن، ولكنها تقول أيضا ما ينبغى أن يكون. وفى الفقرة الكاملة، يصير من الواضح أيضا من أين حصل وينثروب على صفة اللامعة:

«ففتح فاه وعلمّهم قائلاً. طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السماء. طوبى للحزانى؛ لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء؛ لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر؛ لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء؛ لأنهم يرحمون. طوبى للأنقياء القلب. لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعى السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر؛ لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهللوا؛ لأن أجركم عظيم فى السموات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

أنتم ملح الأرض ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُملح. لا يصلح بعد لشىء إلا لأن يطرح خارجًا ويُداس من الناس. أنتم نور العالم. لايمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات.

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل». (متى ٥ : ٢-١٧).

وبعد أن كرس معظم خطابه لمديح الطريقة الأمريكية فى الحياة، ولاسيما الحب الأمريكى للحرية، وصف ريجان كيف أنه اعتاد أن يرقب الفجر من نافذة خاصة فى البيت الأبيض:

«فى الأيام القليلة الماضية عندما كنت عند تلك النافذة فى الطابق العلوى،

فكرت قليلا فى «المدينة المتلألئة فوق التل». والعبارة مأخوذة عن چون وينثروب، الذى كتبها ليصف أمريكا التى تخيلها. وما تخيله كان مهمًا؛ لأنه كان حاجًا من الأوائل، واحدًا من رجال الحرية الأوائل. وقد رحل إلى هنا على متن ما قد نسميه اليوم قاربًا خشبيًا صغيرًا؛ وهو مثل الحجاج الآخرين كان يبحث عن وطن لكى يكون حرًا. لقد كنت طوال حياتى السياسية أتحدث عن المدينة المتلألئة، ولكننى لا أعرف إذا ما كنت قد ربطتها على الإطلاق بما رأيته عندما قلت ذلك. ولكنها فى ذهنى كانت مدينة فخورة مبنية على صخور أقوى من المحيطات والرياح العاصفة. باركها الرب، وتعج بالناس من كل نوع يعيشون فى انسجام وسلام؛ مدينة ذات موانئ حرة تتدفق بالتجارة والحيوية. وإذا كان لابد أن تكون هناك أسوار للمدينة فإن الأسوار لها أبواب والأبواب مفتوحة لأى واحد يمتلك الإرادة والجسارة على أن يأتى إلى هنا. هكذا رأيتها وما زلت أراها.

وكيف تقف المدينة فى هذه الليلة الشتوية؟ إنها أكثر ازدهارًا وأكثر أمنًا وأكثر سعادة مما كانت عليه قبل ثمانى سنوات. ولكن ما هو أكثر من ذلك: أنها بعد ٢٠٠ سنة، قرنين من الزمان، ما تزال قوية وصادقة على الحافة الجرانيتية، كما أن توهجها ثابت مهما كانت شدة العواصف. وهى ما تزال منارة، وما تزال مغناطيسًا يجتذب كل من يجب أن ينالوا الحرية، للحجاج من جميع الأماكن المفقودة الذين يهرولون فى الظلام ساعين صوبها».

ومن المثير للسخرية - قليلا بطبيعة الحال - أن المجتمع الذى أسسه الرجل المحب للحرية الذى تحدث عنه ريجان، وهو چون ويثروب كان استبداديًا شموليًا مثل أى استبدادى شمولى آخر. وكانت فكرته عن الحرية السياسية فكرة ضيقة. أما فى الأمور الدينية فلم تكن فكرة الحرية موجودة لديه على الإطلاق؛ إذ إنه لم يستطع أن يتحمل الانتقادات الموجهة ضد إدارته كحاكم لمستعمرة ماساشوستس. فعندما سيطرت آن هتشنسون وهى مجرد امرأة، على كنيسة بوسطن سنة ١٦٣٦م وعملت على تحويل المستعمرة كلها إلى موقف دينى جديد، وصمها ويثروب بالتجديف والكفر. وحرص على ضمان نفيها ثم صدر قران الحرمان الكنسى ضدها فيما بعد. وإذ كانت حياتها فى خطر هربت إلى جزيرة رود أيلاند. وتكتب دائرة المعارف البريطانية إن «كان ويثروب يتابعها بالعقوبات لكى يزيد من شقائها».

وكما كان يحدث دائمًا فى النظرية السياسية الأنجلو ـ أمريكية، وبدرجة أشد وضوحًا فيما يتعلق بما يسمى الثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م، كانت كلمتا «الحرية» و«التحرر» مرادفين للعداء الكاثوليكية، التى كانت تعتبر القطب المعاكس بوصفها اضطهاداً شموليًا. وسواء أكان هذا حقيقيًا أم لا مسألة أخرى: إذ كان هذا يحظى بتصديق على نطاق واسع؛ لأن التنميط البروتستانتى من الكتاب المقدس، لاسيما من سفر الرؤيا، قال إنه يجب أن يكون كذلك. ألم يبرهن كتاب فوكس Book Of Martyrs. هذه النقطة؟ (وفى الحقيقة أن فوكس كان أيضا مدفوعًا بمنطق مسبق فى التنميط، وصور الدليل على الطغيان الكاثوليكى تحت حكم الملكة مارى فى هذا الضوء. وغاب عنه، مثلاً التأثير الكابح لإسبانيا الكاثوليكية على حمية مارى الدينية؛ لأن ذلك لم يكن يناسب النظرية).

أما معنى كلمة الحرية الذى كان البيوريتان فى نيوإنجلاند يهتمون به حقًا فكان الهرب من الاتجاهات الرومانية المزعومة فى الكنيسة الكاثوليكية، والتى كان من المعتقد أنها تهدد حرية الناس من أمثالهم ممن يسيرون على حذو الرسالة البروتستانتية الكاملة لچون كالڤن. فقد كانوا هم المضطهدين الذين قال عنهم المسيح إنهم مباركون. وفاتهم أن يروا أنهم يمارسون الاضطهاد. وفيما يتعلق بتحويل النظم الكنسية فى عهد چيمس الأول وتشارلز الأول إلى الرومانية حقًا؛ فإن تلك أمور أرجأوا مناقشتها: إذ كان يكفى القول بالكاثوليكية الرومانية ليكون خرقًا خطيرًا للقانون فى انجلترا كما فى ماساشوستس، أما أن تكون قسيسًا كاثوليكيًا فتلك كانت الجريمة الكبرى. ومن المفترض أن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لأناس لهم طبع وينثروب. إذ كان يعيش فى الوقت الذى لم يكن فيه التهديد الكبير لانجلترا البروتستانتية مصدره الكاثوليك الظاهرون فحسب (والذين كان من حسن حظهم أنهم على قيد الحياة) ولكن من المعمودين السريين، حسب الرؤية السائدة. هؤلاء كانوا ما يسمون المعموديين الكنسيين الذين كانوا يتوافقون فى الظاهر مع الكنيسة القائمة، ولكن كان يفترض أنهم يتآمرون سرًا ضدها. وكان البيوريتان يظنون أن المؤسسات الرسمية الإنجليزية قد أعميت على أيديهم. والنفوذ المفترض لمثل هؤلاء الناس (والذى يفكر المؤرخون الآن أنه كان محل مبالغة كبيرة) كان من العوامل الكبرى التى أدت إلى الحرب الأهلية ضد تشارلز الأول وإلى الإطاحة بچيمس الثانى.

والاستخدام السياسى للتنميط البروتستانتى، كما فى خطب ريجان وكثير غيره، تجاوزهما أدريان هاستنج بشكل مدهش فى دراسته عن الدين والهوية الوطنية The Construction of Nationhood. فهو يلاحظ وصف أمريكا باعتبارها «مدينة على التل»، وكذلك الطريقة التى كان چورچ واشنطن يحتفى به على أنه موسى الجديد وينظر إلى بريطانيا باعتبارها مصر أخرى، وذلك فى زمن الثورة الأمريكية، وهما إشارتان نمطيتان إلى الكتاب المقدس. بيد أنه لايربط هذا بأية صورة أكبر.

وكما يبدو شائعًا بين الباحثين المحدثين، فإن الحقيقة الحاسمة التى غفل عنها هى الطريقة التى كان البروتستانت منغمسين بها فى النصوص المقدسة، من القراءة المنتظمة واليومية فى الكتاب المقدس بحيث شكلت وعيهم وأمدتهم بخلفية شاملة لكل فكر آخر لديهم. وبالنسبة لكثير من المسيحيين البروتستانت الإنجليز والأمريكيين حتى الحرب العالمية الثانية على الأقل، كان الكتاب المقدس يقدم العدسات التى يُرى منها بقية العالم. **ولا غرو أن لويد چورچ كان أكثر ألفة بملوك بنى إسرائيل منه بملوك انجلترا؛ إذ إنه تربى فى ثقافة پروتستانتية مستمدة من الكتاب المقدس كانت تعتبر تاريخ بنى إسرائيل القديم كما لو كان تاريخ بريطانيا (إسرائيل الجديدة).**

وإذا كان علماء اللاهوت الإنجليز من أمثال هاستنج قد فاتتهم هذه النقطة على أية حال، فإن المؤرخين الأمريكيين لم يغفلوا عنها؛ إذ إن ديبورا ماتسن فى كتابها American Exceptionalism تسير على خطى ساكڤان بيركوڤيتش فى كتاب فى وصفه The Puritan Origins of American Self :

«الأمر اللازم الذى عمل تحته المؤمنون البيوريتان فى سعيهم لتعريف أنفسهم وتقدم أرواحهم تجاه الخلاص بالوعود والنماذج الممثلة فى الكتاب المقدس. وفى تقدير بيركوڤيتش أن أهمية التنميط بالنسبة للمؤمنين الفرادى يكمن فى قوته التى تخلق مشابهات عبر الزمن وبذلك تسمح للفرد البيوريتانى أن يعرِّف بالحوادث الرئيسية فى تاريخ العناية الإلهية.

الأفراد والأمم. كان لتطبيق وصف «الشعب المختار» على الإنجليز ثم فيما بعد على الأمريكيين أصل مخصوص فى هذه الطرق البروتستانتية ثم البيوريتانية فى النظر إلى الكتاب المقدس. ولكن كان له أصلان آخران، أحدهما ـ رغبة السياسيين فى القرن الثامن عشر فى ضم الأمم الثلاث التى تكوّن بريطانيا العظمى فى كيان

بروتستانتى واحد، وذلك لتدعيم السلالة الهانوڤرية وتحويل الناس ضد اليعقوبيين الكاثوليك ـ وهو ما تمت دراسته بالفعل بشكل كبير فى كتاب ليندا كولى. ولكن جذورها تعود مباشرة إلى لحظة خلق الدولة الوطنية الإنجليزية، وبالتحديد انفصال هنرى الثامن عن روما بسبب مسألة طلاقه. وهذه منطقة لم تدرس نسبيًا.

وعلى مدى قرون فيما بعد كانت الرؤية المستقرة للمسيحية فى التاريخ الإنجليزى قبل عصر الإصلاح الدينى هى التى ترى الكنيسة باعتبارها كنيسة فاسدة، عقيمة، تؤمن بالخرافة، جاهلة، يركبها القساوسة، بحيث إن الناس لم يكونوا قادرين على الانتظار للتخلص منها. ولم يكن من الصعب الشك فى أنه كان لهذه النظرة مستوى عال من الدعاية، ولم يحدث سوى فى العقد الأخير أن صار من الممكن الحصول على صورة أكثر وضوحًا. ويوافق الباحثون فى تلك الفترة بدرجة أو بأخرى على أن كتاب إيامون دوفى، الذى يحمل عنوان «The Stripping of Altars» والقائم على أساس فحصه لوثائق ما قبل عصر الإصلاح الدينى، ويكشف عن ديانة شعبية فى العصور الوسطى العالية، هو الأقرب إلى الحقيقة. وهو يناقض تلك الرؤية المقبولة فى كل جانب تقريبًا ويستنتج دوفى:

«كانت الكاثوليكية فى العصور الوسطى تتمتع بسيطرة قوية مختلفة وعاتية على خيال الناس وولائهم حتى لحظة قيام حركة الإصلاح الدينى. إذ لم تكن الديانة التقليدية تشوبها أية علامات تدل على الإرهاق والذبول؛ والواقع أنه بمجموعة كاملة من الوسائل، من تكاثر الكتب الدينية باللهجات المحلية حتى التعديلات داخل عبادة القديسين الوطنية والإقليمية، كانت تبدى قدرة جيدة على مواجهة الحاجات الجديدة والظروف الجديدة... وعندما قيل كل شىء تم فعله، كانت حركة الإصلاح الدينى اضطرابًا عنيفًا، وليس التحقيق الطبيعى، لما كان قويًا فى ديانة العصور الوسطى المتأخرة والممارسات الدينية أثناءها».

لقد كانت بعبارة أخرى ثورة حقيقية، قطيعة حادة مع الماضى، ولكنها قطيعة تبدو وكأنها شىء آخر، لقد كان تخيل المجتمع الوطنى (حسب مفهوم بندكت أندرسون) ما يزال فعلاً من أفعال الذاكرة، بيد أنه كان لابد من تغيير الذاكرة ـ أو تزييفها فى الواقع. وكان لابد من إزالة الدليل المادى الذى يسند الذاكرة. وكان هذا

يعنى الأديرة، والتى كانت أكثر من الكاتدرائيات والكنائس الأبرشية، هى العمود الفقرى لانجلترا المسيحية فى العصور الوسطى. إذ كانت النظم الديرية تستعصى على سيطرة الملك بدرجة أكبر كثيرًا، وقد تنبأ بمعارضة أكثر رسوخًا لحركته الإصلاحية من هذه الجهة ما لم تتم إزالتها.

لم تكن أوروبا العصور الوسطى تتألف مما نسميه اليوم الدول الوطنية. كما أنها لم تكن دولة وطنية واحدة شاملة، تحكم من عاصمة واحدة. وعلى الرغم من أن التاريخ يقدم أمثلة من الدول الوطنية كنموذج يقوم على أساس نظرية سياسية عن السيادة الوطنية فإنها لم توجد حتى ابتكرها هنرى الثامن (وحسنتها ابنته إليزابيث الأولى).

كانت سيادة الممالك فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى سيادة جزئية؛ ليس فقط لأنها وجدت فى اتحاد فضفاض يضم السلالات الحاكمة التى كانت تتزاوج فيما بينها غالبًا، ولكنها كانت تعيش تحت تأثير سيادة من نوع آخر، هى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، التى كانت فى كل الأمور تتعلق بالعقيدة والأخلاق؛ إذ إن القانون المدنى ـ الذى وضعه الملوك ـ كان يوجد جنبًا إلى جنب مع القانون الكنسى ـ الذى وضعه البابوات ـ والذى غالبًا ما كانت له الأسبقية. واللجوء إلى روما كان ممكنًا، على الرغم من أن بعد المسافة ومشقة السفر، لم يجعل هذا أمرًا شائعًا. وكانت للبابا أيضًا صلاحيات باعتباره الحاكم الأعلى، والذى كان يمكنه حتى عزل الملوك فى الحالات المتطرفة. وكان الحرمان الكنسى والتحريم (أى منع الاحتفال بالأسرار الكنسية) من الأسلحة التى يُخشى منها، كما ظهر من هنرى الثانى.

فى بعض الأحيان كانت هذه العلاقات تفور وتغلى بحيث تتحول إلى صراع مكشوف، فملوك انجلترا فى العصور الوسطى مثلا قد حاولوا أن يكبحوا جماح الصلاحيات البابوية فى عدة مناسبات، واقترب هنرى الأول من النجاح. أما هنرى الثانى فقد تسبب فى اغتيال كبير أساقفة كانتربورى توماس بيكيت؛ لأنه كان يؤيد استقلال الكنيسة عن الدولة وتدخلها، وقاوم رغبة هنرى الثانى فى أن يترسم خطى جده فى هذه الأمور. أما البابوية بدورها فغالبا ما كانت تلعب السياسة بسلطتها، إما بإعطاء الموافقات على الزواج الملكى، أو برفض الموافقة، حسب اتجاه الريح

السياسية وحسب من يكون محبوبًا أو مكروهًا لديها: إسپانيا أو فرنسا أو الإمبراطور الرومانى المقدس، وهلم جرا. بيد أنها لم تكن فاسدة تمامًا: فقد كانت حركات الإصلاح من الملامح المنتظمة فى الفضاء الكنسى الرومانى. وفى بعض الأحيان كان يُساء استخدام القوة السياسية للبابوية، ولكنها فى أغلب الأحيان كانت تستخدم بنزاهة.

ولم تكن فكرة الملكية فى العصور الوسطى فكرة علمانية، ففى لاهوت ذلك الزمان كانت السلطة السياسية بأسرها مستمدة من الرب، وكان واجب إطاعة قوانين الدولة واجبًا دينيًا. ولكن الشىء الوحيد الذى لم يكن مسموحًا للملك بأن يفعله هو أن ينصب نفسه بابا، وأن يحل محل أسقف روما فى دوره ويأخذ صلاحيات كاملة على الكنيسة وعلى الدولة أيضًا. ولم يكن هذا فقط ما فعله هنرى الثامن، ولكنه انطلق بمساعدة من العبقرى السياسى توماس كروميل، فى الادعاء بأن انجلترا كانت دائما متحررة من السيطرة البابوية. ومثال هنرى الأول وهنرى الثانى لم يخدماهما بشكل جيد؛ لأن كليهما كانا فرنسيين فى الحقيقة، استمرا يحكمان جزءًا من فرنسا مثل انجلترا، وبسبب خروج هنرى الثانى عن الكنيسة، وهو ما نتج عنه فى النهاية مصرع توماس بيكيت سنة ١١٧٠م، والذى انتهى بخضوعه للبابا الكسندر الثالث ثم الصلح بينهما بعد سلسلة من التوبة التى حطت من قدر هنرى الثانى، بما فى ذلك الجلد علنًا بالسياط. وكانت إحدى تحركات هنرى الثامن الأكثر أهمية هى أنه جعل مقبرة ومزار توماس بيكيت فى كانتربورى - أحد مقاصد الحج الأكثر تبجيلاً فى أوروپا - يتم تدميرها وتحرق بقايا القديسين، وحتى العظام، وتذروها الرياح. لقد كان بيكيت رمزًا لاستقلال الكنيسة عن الدولة، وحقيقة أنه بعد موته مباشرة صار أكثر القديسين شعبية فى انجلترا أو فى أوروپا كلها يدل ذلك على أن العامة اعتبرت أن ذلك المبدأ بمثابة ضمان ضد الاستبداد الملكى المطلق.

كان اللاهوت السياسى الذى هو تلك الصيغة من البروتستانتية التى ارتبطت باسم وليم تايندال فى كتابه «The Obedience of a Christian Man» والذى نُشر سنة ١٥٢٧م، والذى أرسى دعائم الرأى القائل بأن طاعة كلمة الرب تتطلب طاعة

الملك. وتشويش كروميل المتعمد للتاريخ كان المقصود به أن تكون مثل هذه الآراء عادية وتقليدية، وليست شيئًا جديدًا.

وكنيسة انجلترا الحديثة، على خلاف الأجزاء الأخرى من الجماعة الأنجليكانية، تفتقر إلى القول الفصل فى شئونها الخاصة فى نفس المناطق التى كانت محجوزة للبابوية فى العصور الوسطى وانتقلت إلى التاج والبرلمان تحت حكم هنرى بقوانين الإصلاح الكنسى فى ثلاثينيات القرن السادس عشر: تعيين الأساقفة وتحديد العبادة والمذهب. وفى كل من المجالين فإن الدولة الآن قد قلصت سلطتها إلى أدنى حد. ومع هذا فإن الموافقة البرلمانية كانت مطلوبة على قرار كنيسة انجلترا برسامة النساء قساوسة سنة ١٩٩٢م، وموافقة رئيس الوزراء ما تزال ضرورية قبل تعيين أى أسقف كبير (وعادة ما يكون أمامه مرشحان يختار أحدهما). وعلى الرغم من تظاهر كروميل بأن هذه السلطات كانت دائمًا بحوزة التاج، فإن هذه السلطات التى نقلها هنرى لنفسه كانت ذات مرة سلطات بابوية. ولم تكن أبدًا من سلطات الكنيسة فى انجلترا باعتبارها حقًا، وحتى اليوم فهى ليست كذلك.

ويشرح چونز كيف أن إعادة كتابة التاريخ هذه شكلت الوعى الذاتى الإنجليزى على مدى أجيال قادمة:

«نسى الإنجليز أنهم أوروبيون بسبب هذا التعمد المقصود لأن يسيئوا فهم تاريخهم، فقد قيض لهم أن يصبحوا وطنيين بدرجة متزايدة، وأن يكونوا جزئيين فى نظرتهم، على الرغم من حيازة إمبراطورية عظمى فيما وراء البحار. وقد طوروا صفات وخصالاً أخرى مستلهمة من هذه الرؤية لماضيهم، بما فى ذلك إحساس بالخصوصية والاكتفاء الذاتى، والتفوق والانفصال عن بقية شعوب العالم. هذه الذاكرة الزائفة أثرت على نفسيتهم ونظرتهم للعالم».

بيد أن هذا العامل النفسى لا يقدم تفسيرًا كاملاً. ، فالكاثوليك حتى زمن هنرى الثامن قد أخذوا من اليهود مكانة شعب الرب وصاروا بحسب نص رسالة بطرس الرسول الأولى (٢ : ٩) «وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى أمة مقدسة، شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب».

هذا يصف الكنيسة نظريًا، ولكن أين كان يجب أن توجد الكنيسة فى الممارسة؟

كان يجب أن تكون فى مكان ما، إن لم يكن فى أحد الأماكن، ففى غيره . وحتى عهد هنرى كانت الإجابة (بقدر ما كان يخص الجزء الغربى اللاتينى،من العالم المسيحى) هى المؤسسة التى تتمركز فى روما. وزعم هنرى برئاسة الكنيسة كان يعنى تلقائيا أن هذه الكلمات، إذا لم تعد تنطبق على روما، يجب أن تنطبق آنذاك على كنيسة انجلترا. **ومنذ ذلك الحين فإن كنيسة انجلترا وليست روما كانت «. . . أمة مقدسة شعب اقتناء»** ولكن هذه لم تكن آنذاك مؤسسة منفصلة عن الدولة الهنرية، مثلما كانت كنيسة العصور الوسطى، بوصفها جزءاً من الكنيسة العالمية مؤسسة منفصلة. لقد كانت أقرب ما تكون إلى ما نعرفه اليوم باسم «وزارة الشئون الدينية» - أى إدارة حكومية. كان الملك يرأس الحكومة فى ذلك الوقت. وكان الجانبان الروحى فى سلطة الملك وجهين لعملة واحدة. لقد كانت انجلترا هى كل من الكنيسة والدولة، وفى كل من المجالين كانت «أمة مقدسة، وشعب اقتناء».

وهكذا فإن انجلترا (وانجلترا وحدها لكل المقاصد والأغراض) وقفت فى مكان يهود العهد القديم، ومسيحىّ العهد الجديد، باعتبارها أداة ليس فقط من أجل أغراض الملك وإنما لأغراض الرب. ومثل العبرانيين الذى يتحدث عنهم العهد القديم، كان هذا شعبًا مختارًا تم تعريفه دينيًا ووطنيًا على السواء. فقد كانت حدود التعريف الدينى هى حدود التعريف الوطنى والعكس صحيح تماما: إذ إن المواطنة فى إسرائيل سواء القديمة أو الجديدة كانت تعنى العضوية التلقائية فى شعب الرب. وقد حازت انجلترا مصيرًا واضحًا فقد كان لها دور فريد تلعبه فى خطة الرب الرئيسية لخلاص بنى الإنسان. فقد كانت الصيغة التى اعتنقتها من المسيحية حقيقية بشكل فريد- ويجب أن تكون وإلا يكون الرب ضالعًا فى نوع من الخداع- وهذه الكنائس التى تختلف معها خاطئة (أو ما هو أسوأ، بين يدى الشيطان).

ولكن هذا كان تراثًا محافظًا، وما يزال كاثوليكيًا فى طرازه وأسلوبه، بالشكل الذى يعكس أذواق هنرى الدينية الخاصة. هذا الموقف المحافظ بقى فى الحركة داخل كنيسة انجلترا، والتى عرفت فيما بعد باسم الكاثوليكية الإنجليزية. وكانت دعواها المركزية أن كل أساسيات المسيحية الكاثوليكية قد حفظت سليمة داخل المذهب الأنجليكانى، ويجب الاعتراف بها كما هى من جانب روما والكنائس الوطنية الأخرى. وبعبارة أخرى كان ما منع المصالحة مع روما هو إصرار روما على رؤية

متضخمة للصلاحيات البابوية. ولكن الكاثوليكية الإنجليزية كان لديها استعداد دائم لأن تسلم بأن روما يجب أن تتمتع «بأولوية الشرف بين الكنائس وهو شيء أقرب للمفهوم القائل بالأول بين أقرانه»، ولذلك فإن اللوم فى مسألة الانفصال يقع على عاتق روما لمبالغتها فى المزاعم البابوية بشأن السمو. وكانت كنيسة انجلترا هى الكنيسة الكاثوليكية القديمة فى الوطن. وإذا أثبتت هذه المعادلة أنها غير مقبولة لأكثر أنواع الأنجليكان پروتستانتية، فإن الزعم تم تعديله بحيث يقال إنها كاثوليكية وإصلاحية فى آن معا- على الرغم من أن الحقيقة هى أن كليهما سواء فى البداية أو على مدى القرون التالية كان ذلك الجزء من كنيسة انجلترا الذى كان إصلاحيا أكثر منه كاثوليكيًا (وبعبارة أخرى وجدت أشكال عديدة من المسيحية الأنجليكانية جنبا إلى جنب داخل بناء كنسى أنجليكانى واحد).

وترجمة هنرى وكروموبل المحافظة لتراث المذهب الأنجليكانى لم تبق بلا تحدى وقتا طويلا؛ إذ إن حركة الإصلاح الدينى التى قاما بها تحولت لأن تكون مجرد القضمة الأولى فيما ثبت أنه وجبة ممتدة. وإلى حد كبير كان هذا راجعًا إلى مصادفة التوقيت: إذ إن نفاذ صبر هنرى على معارضة الكنيسة لطلاقه وزواجه من جديد جاء بالضبط فى الوقت الذى كانت فيه حركة الإصلاح الدينى البروتستانتية الحقيقية تحث الخطى فى القارة الأوروبية، ولاسيما فى ألمانيا وفرنسا وهولندا وسويسرا. (وبالنسبة للپروتستانت المؤمنين بالعناية الإلهية، طبعا، كانت مثل هذه المصادفات من تدبير الرب). وقد أدى انتقال التاج الملكى من هنرى إلى إدوارد السادس إلى دفع سياسات الديانة الإنجليزية بشدة صوب اليسار. أما البروتستانت المتشددون، والذين كان على بعضهم أن يطردوا إلى المنفى فى ألمانيا اللوثرية (نسبة إلى مارتن لوثر) وسويسرا الكالڤينية (نسبة إلى چون كالڤن) بسبب حركة الاضطهادات الشرسة التى شنتها مارى تيودور ضد البروتستانت- هؤلاء البروتستانت المتشددون أخذوا اعتراضاتهم على الصيغة الرومانية من المسيحية خطوة أبعد كثيراً من المنازعات الهنرية حول الصلاحيات البابوية.

وكان لهذا التطور تداعيات بعيدة المدى؛ إذ إنه أوجد توترًا فى قلب حركة الإصلاح الدينى الإنجليزية بين نموذجين متصارعين. كان أحدهما محافظا على حين كان الآخر ثوريا راديكاليا، كان أحدهما ملكيا وكنسيا، والآخر جمهوريا،

يؤمن بالمساواة ، **فهل كانت السلطة (سواء فى الكنيسة أو فى الدولة لم يكن مهمًا) تفيض من أسفل إلى أعلى أو من أعلى أسفل . من أسفل إلى أعلى منبثقة من شعب الرب ، أى العلمانيين(*) أو من أعلى إلى أسفل من الأمراء والكرادلة الذين مسحهم الرب والذين يحكمون باسمه؟ كان هذا صراعًا للأفكار أدى إلى نشوب الحرب الأهلية وتسبب فى ثورتين فى القرن التالى (ثورة أوليفر كرومويل والثورة المجيدة سنة ١٦٨٨م ضد چيمس الثانى) ؛ والحجة التى يسوقها كيڤين فيليبس فى كتابه «The Cousins Wars» هى أن هناك أيضا كانت ترقد بذور الحرب الثورية الأمريكية والحرب الأهلية الأمريكية . كما أن الجدل لم ينته بعد .**

كانت المسيحية الأوروبية فى العصور الوسطى تعتمد على نموذج السلطة من أعلى لأسفل ، **ولكنها مع ذلك كانت قد طورت نظامًا مزدوجًا للسلطة ، أى السلطة الملكية والسلطة البابوية حيث كانت كل منهما تعمل لكبح وموازنة الأخرى** . وقد حال النظام المزدوج بين كل جانب وبين حيازة السلطة المطلقة . فإذا تجاوز أحد الملوك الحدود فى ممارسة سلطاته فإن الكنيسة التى كانت خارجة عن نطاق سيطرته ، كان يمكنها أن تسعى إلى كبح جماحه . وكان العكس ممكنًا أيضًا من الناحية النظرية ، على الرغم من أن الملك عادة هو الذى كانت له سلطة فعلية على الأرض ، ومن ثم كان تحت وطأة الإغراء الأكبر لإساءة استخدامها . ومن نافلة القول إنه فى الممارسة كانت هذه الكوابح والموازنات تتطلب فى الغالب قدرًا كبيرًا من الدفع القاسى ، بل والحرب من حين إلى حين . فقد حدث قبل فترة غير طويلة من أزمة هنرى الخاصة مع السلطة البابوية ، أن الإمبراطور الرومانى المقدس ، شارل الخامس قد تمادى بحيث سار بجيوشه ضد روما ، التى نهبتها قواته وأسرت البابا أدريان السادس (الذى كان هنرى الثامن يؤيده بقوة قبل ذلك) . وقصة توماس بيكيت التى شهدها القرن الثانى عشر ، والدور الذى لعبه كبير الأساقفة ستيفن لانجتون فى القرن الثالث عشر للمساعدة فى وضع الملك چون فى الموقف الذى يجعله يوافق على توقيع الماجنا كارتا ، إنما هما مثالان على أن الاندفاع الملكى المؤدى إلى الطغيان قد عاد عن طريقه بفعل المعارضة التى أبدتها الكنيسة . كما أن شارل الخامس يقدم مثالاً على الجانب الآخر - أى القوة العلمانية التى تتصرف للتحكم فى الكنيسة . هذا

(*) المعنى من ليسوا من رجال الكنيسة .

الضغط كان المسئول أساسًا عن عقد مجمع ترنت سنة ١٥٤٥م الذى انطلق فى عملية إصلاح شاملة للكنيسة الكاثوليكية بجذورها وفروعها، عبادتها، ممارستها ومذهبها، وفى ضوء الانتقادات البروتستانتية جزئيًا.

والموضوع الدستورى الذى أثاره انفصال هنرى الثامن مع روما تمثل فى أنه إذا لم تكن الكنيسة مستقلة، فإنها لاتستطيع أن تقوم بوظيفتها لكبح سلطة الملك، التى سرعان ماصارت مطلقة، بل واستبدادية فى الواقع. وكان هذا، حسب رأى المؤرخ الأنجليكانى وراعى كنيسة القديس بولس الكاتدرائية القس چون هاليبيرتون، هو بالضبط ما تنبأ به توماس مور حينما استقال من منصب المستشار فى انجلترا بدلاً من أن يتعاون مع هنرى فى الاستحواذ على السلطة فوق الكنيسة. وفى موعظة بكنيسة شلسى القديمة سنة ١٩٩٢م، قال القس هاليبيرتون:

«كان الشبح الماثل أمام ناظرى مور عندما خلع نفسه من أكبر منصب فى البلاد بلا شك هو شبح الطغيان. ففى وقت باكر من حياته كان يضع آمالاً كبارًا فى هنرى الشاب. فقد كان والد هنرى المتجهم بمثابة تهديد بالنسبة لمور؛ إذ كان مور يرى فيه طاغية، ورحب بموته، كما رحب بالعهد الجديد، ورحب بالأمير المتعلم الذكى وزوجته الجميلة، ورحب باهتمامه بالموسيقى والرقص، وكذلك رحب بروحه الاجتماعية واحترامه الكنيسة التى زوّجته وتوّجته. ويشك المرء فى أن مور لم يساوم من أجل ولسى، ولم يحسب حساب سيطرة الكرادلة على الملك الشاب، بحيث يدفعونه إلى حروب لم يكن يقدر عليها، وإلى علاقات مالية لا يمكنه مراعاتها، وفى شكوك حتى حول زوجته وحول زواجه.

كان ولسى بلا شك غير أمين، يجمع ويكون مصادر الدخل والامتيازات؛ لكى تؤمن له دخلاً يتماشى مع برنامجه السياسى. ولكن الكاردينال، كما بدا واضحًا، قاد الملك إلى حافة تأليه السلطة. وعندما قالت أوروپا والبابوية «لا» بصورة قاطعة على مشروعات هنرى وطموحاته، قام هنرى بصبيانيته المعروفة بإعلان أن المملكة والكنيسة من حقه. كانت سلطته مطلقة؛ ولم يكن بوسع أحد أن يقول له «لا». ورأى مور فى هذا بداية تدمير الحكم. وخمس زيجات فيما بعد والاقتصاد فى حال يرثى لها، وقد تهدمت الأديرة وتفككت أواصر الكنيسة، والمثقفون يضجون

مطالبين بالإصلاح وشعب البلاد يشعل شرارة التمرد والثورة، وقدر لهنرى أن يموت بمرض الزهرى ولم يحقق جنونه شيئًا . وقد قاده الشك والغرور إلى إعدام أولئك الذين كان يمكن أن يكونوا أقرب حلفائه .

«وهكذا الأمر مع جميع الطغاة؛ وإذا كان هناك أى درس نتعلمه اليوم من حكمة توماس مور، فهو أن الطغيان لا يتحمل أى نقد، وأن الأنانية المقيتة للطاغية لايمكن التغلب عليها سوى بطهارة الشهيد الذى يضحى بنفسه» .

وأدى موت هنرى واعتلاء إدوارد السادس العرش إلى انطلاق عملية ترميم جذرية للمسيحية الإنجليزية . كذلك لم يكن الإصلاحيون راضين عن مزاعم توماس كروميل التاريخية بالاستمرارية بين كنيسة ما بعد حركة الإصلاح الدينى وكنيسة العصور الوسطى . وفضلوا ما صار هو الرؤية المقبولة (التى أشرنا إليها من قبل) أى أن كنيسة العصور الوسطى كانت قد تعفنت حتى قلبها . ولكن ديباجات كروميل وإعادتها لكتابة التاريخ الإنجليزى كانت ما تزال تمثل أساسًا صالحًا .

وقد وجد چون فوكس، أمير الدعاة البروتستانت كتبًا أخرى مفيدة فى عمليته لإعادة بناء الهوية الوطنية الإنجليزية، ولا سيما مؤلفات صديقه چون بالى؛ ذلك أن رواية كروميل للتاريخ كانت بها ثغرات أكثر مما ينبغى . وبشكل عام كان كتاب بالى عن تاريخ المسيحية الإنجليزية يعود إلى يوسف الرامى(*)، الذى قام، على ما يقال، بإحضار الإنجيل مباشرة إلى انجلترا زمن المسيح، وليس عن طريق روما بالتأكيد . وفى الأسطورة التى شاعت فى العصور الوسطى كان يوسف هو الحارس على الكفن المقدس، وقد دفن فى جلاستونبرى . وثمة روابط قوية هنا مع أسطورة آرثر . فقد أورد الإنجيل أن يوسف كان رجلاً غنيًا وكان تلميذًا سريًا من تلاميذ المسيح قدم مقبرته الخاصة لدفن المسيح . وإعادة استخدام بالى ليوسف لخدمة روايته الخاصة عن التاريخ الإنجليزى لابد أنها تركت أصداء قوية فى الوعى الباطن الوطنى . فقد بدأ الأمر كله يكتسى قدرًا من المعنى .

(*) جاء فى إنجيل متى (٢٧ : ٥٧ ـ ٦٠) ولما كان المساء جاء رجل غنى من الرامة اسمه يوسف . وكان هو أيضا تلميذًا ليسوع . فهذا تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع . فأمر بيلاطس حينئذ أن يعطى الجسد . فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقى ووضعه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى ـ المترجم .

وهكذا كانت الكنيسة الإنجليزية قد تأسست على يد ملك واحد هو الملك لوسيوس وهو ملك كان معاصراً للإمبراطور قسطنطين (الذى اعترف بالمسيحية فى الإمبراطورية الرومانية): وبعد ذلك فإن قصة انجلترا إنما هى قصة صراع مستمر بين الملوك الوطنيين وشعبهم من ناحية، والغزاة الأجانب من مختلف الأنواع التى تمثل المسيح الدجال من ناحية أخرى. فقد كان الغزو السكسونى الوثنى، وبعثة القديس أوغسطين التبشيرية المفسدة فى نهاية القرن السادس، وحتى الغزو النورمانى وماجلبه من طابور مخادع من الأساقفة والرهبان كلها كانت فصولاً فى الحكاية الملحمية. وهكذا تم توضيح أن المسيحية الإنجليزية كانت هى أنقى الأنواع؛ لأنها جاءت من المسيح ومن الحواريين مباشرة، وتم الحفاظ عليها على مدى القرون حتى وصلت إلى البروتستانت الإنجليز فى القرن السادس عشر لكى تبرز فى الضوء، ويتم إعلانها بوصفها العقيدة الأصلية التى قصدها المسيح. كانت تلك رؤية تتعلق بسفر الرؤيا الذى يتحدث عن النهاية، ومنحت الملوك الإنجليز دوراً مظفراً باعتبارهم المدافعين الشجعان عن التراث الوطنى المقدس ضد المضايقات المستمرة من جانب الحكام الأجانب، والمسيح الدجال البابوى على وجه الخصوص. وقد سار چون فوكس على خطى بالى بإخلاص، ويكتب چونز:

«كان مؤلفه الضخم « The Book of Martyrs » داخل نفس إطار الفكر الوطنى، فهناك الوصف التقليدى للبابوية بأنها قوة استبدادية تمثل سلطة المسيح الدجال وتهدد الاستقلال والحرية والدين الحقيقى للشعب الإنجليزى. وهناك أيضا التقرير بأن سمو الملك باعتباره نائب الرب الحاكم على الكنيسة والدولة كانت هذه هى الأعمدة القديمة التى بنى كروميل عليها بناءه. والآن تمت إضافة عنصر جديد وأساسى إلى الأسطورة على أيدى بالى وفوكس».

وقد تبنى فوكس رؤية بالى للتاريخ الإنجليزى التى ترتبط بسفر الرؤيا: «أن التاريخ الإنجليزى بأسره قد أدى بفعل العناية الإلهية إلى حكم هنرى الثامن وإليزابيث الأولى، **اللذين عينهما الرب لقيادة الشعب الإنجليزى من أرض العبودية (أى السيطرة البابوية الأجنبية) إلى الحرية والنجاح الوطنى... هذا التضمين للتفسير البروتستانتى للتاريخ فى التاريخ الإنجليزى لخدمة حاجات رؤيته المرتبطة بسفر الرؤيا حول كتاب فوكس إلى فلسفة تاريخ. وقد أضفى هذا جاذبية صليبية**

على الأسطورة الشعبية عن الماضى الإنجليزى. فقد صار بوسع البروتستانت الإنجليز آنذاك أن يصيروا جزءًا من الرؤية المرتبطة بسفر الرؤيا فى الحاضر وفى المستقبل. . . هذا التراث المرتبط بسفر الرؤيا كان مقدرًا له أن يصبح أكثر أهمية بالنسبة للوطنية الإنجليزية».

والإشارة إلى موسى فى تشبيه هنرى «يقود شعب انجلترا للخروج من أرض العبودية» واضحة. ذلك أن أولئك الذين قادهم موسى الجديد كانوا خلفاء بنى إسرائيل القدماء.

وعند البداية وضعت هذه الأيديولوچية الوطنية الجديدة المستمدة من سفر الرؤيا انجلترا مع غيرها من الأمم البروتستانتية، باعتبارها زعيمة مؤيدة وملاذًا وحليفًا وعدوا لإسپانيا وفرنسا الكاثوليكية. وكان المختارون فى البداية من جنسيات متعددة. ولكن الأيديولوچية الهنرية (إذا ما كان للمرء أن يضع لافتة على الأفكار الكامنة خلف القوانين الإصلاحية التى سنها البرلمان فى ثلاثينيات القرن السادس عشر) سحبتها فى اتجاه تركيز خاص على دور انجلترا تستبعد الآخرين، مثلما فعلت الحكاية التاريخية التى دبرها بالى. وربما يكون أبناء الأمم الأخرى بين المختارين ولكن كانت هناك أمة مختارة واحدة فقط، ومكان واحد حيث تم حفظ الإنجيل الحقيقى فيه بفضل العناية الإلهية منذ زمن المسيح: هو انجلترا.

وهكذا فإن توماس برايتهام فى كتيب نُشر سنة ١٦١٥م ـ أى قبل خمس سنوات من نزول الحجاج على صخرة بلايموث، فى ماساشوستس، وزراعة هذه الأفكار فى التربة الأمريكية ـ **أشار إلى المكان الخاص الذى أعطى للكنيسة الإنجليزية الإصلاحية فى خطة الرب التى يوضحها سفر الرؤيا قائلا: «لم يكن هناك أى مشابه ينافسها باعتبارها نموذجًا كاملاً لا نظير له». لقد كانت ديانة ما تزال محاصرة بالأعداء (فى عصبة مع روما بشكل مباشر أو غير مباشر) بحيث يتطلب الأمر شن حرب أهلية لكى تدافع عن نفسها فى مواجهتهم**. وهكذا تقارب هذان التياران ـ حاجة هنرى إلى نوع من الاستقرار الدستورى، والرؤية الپيوريتانية المستمدة من سفر الرؤيا ـ فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. كانت أوجه الغموض والتناقضات، التى نجمت عن هذه الأفكار غير المتوافقة العديدة بالفعل

مصدر قوة على مدى فترة من الزمان ـ إذ نقض أحد جوانب التناقض يؤدى فى الحال إلى تألق الجانب الآخر فى قوة. وقد حدث أول ازدهار كبير لها، بحيث اتضح مدى نضج هذه الأفكار وكمالها فى تاريخ العالم، فى عهد الملكة الطيبة Bess التى تجسد انجلترا البروتستانتية. كما يكتب چونز:

«لم يكن هناك شىء يلهم اهتمام إليزابيث بالوطنية أكثر من فكرة أن قضية الديانة الحقة مرتبطة بصعود دولة السيادة الوطنية الإنجليزية تحت حكم ملكتها، التى عينها الرب لحماية الأمة البروتستانتية ضد شرور القوى الكاثوليكية مثل فرنسا وإسپانيا اللتين فى عصبة المسيح الدجال ـ أى البابوية. وقد أحس أحد قساوسة الملكة إليزابيث وهو الأسقف چون آليمر، بالثقة الزائدة بحيث أعلن أن الرب إنجليزى».

وچونز نفسه كاثوليكى ولكن نقضه للتاريخ البرسبتارى المزيف للمسيحية الإنجليزية الذى تم ارتكابه لأسباب سياسية يحظى بموافقة كبيرة من جانب اللاهوتى والمؤرخ إيان برادلى، وهو اسكتلندى على المذهب البرستبارى. ويلاحظ برادلى أن الشكل القديم المفترض للمسيحية النقية التى زعم أوائل المصلحين البروتستانت أنهم ورثوها كانت إلى حد كبير هى ما يسمى الآن المسيحية الكلتية، وهو يقترح، لأنه لم يصادف أى استخدام للمصطلح قبل چون بالى صديق چون فوكس، أن نفس مصطلح «كلتى» كان اختراعًا پروتستانتيًا. ويقرر أن مسألة ما إذا كان هناك على الإطلاق شىء مثل الكنيسة الكلتية حسب الفهم الشائع اليوم من عدمه، إنما هى مسألة غير مؤكدة. وعلى الرغم من هذا فإنها برهنت على كونها فكرة مفيدة؛ لأنها كانت شاشة بيضاء يستطيع الناس أن يسقطوا عليها ما يريدون. ويقول برادلى إن المصلحين الدينيين الإنجليز الأوائل:

«أوجدوا الكنيسة الكلتية لتكون مؤسسة پروتستانتية تماما، وتتحدد ملامحها بالنقاء الإنجيلى والاستقلال التام عن روما. وبعيدًا عن جلب مبادئ جديدة من القارة الأوروپية، كما يزعم خصومها، جادلوا بأن حركة الإصلاح الدينى كانت تمثل رجعة إلى قيم مسيحية بريطانية أصيلة فى عصرها الذهبى».

«وعملية إعادة كتابة التاريخ لكى تمنحه نسيجًا پروتستانتيًا جديدًا كانت قد بدأت على يد وليم تايندال. ففى كتابه الذى يحمل عنوان The Obedience of

Christian Man وكتابه : Practice of prolates اللذين كتبهما فى منفاه بهولندا، قدم صورة كنيسة بريطانية مستقلة كانت تقف بثبات فى وجه السيادة الرومانية خلال العصور الوسطى. وكان بطل تايندال المتصور من العصر الكلتى الذهبى هو جيلداس، الراهب البريطانى الذى عاش فى القرن السادس، والذى صوره فى صورة الشخص الذى يحمل نبوءة وأرسله الرب لكى يمنع أبناء بلده من التخلى عن النصوص المقدسة. وإذا ما تجاوزنا عن تعاطفه القوى مع كنيسة روما، فإن جيلداس قد صار بالنسبة لكثيرين من الكتاب التبريريين الذين روجوا لحركة الإصلاح الدينى نمطًا من الأنبياء البروتستانت يدعو أبناء بلده إلى التوبة ويبشر بالإنجيل الحقيقى.

وجهود تايندال الرائدة لإيجاد سابقة للبروتستانتية فى تاريخ الكنيسة البريطانية الباكر التقطها چون بالى وطورها... إذن أن أهم مؤلفاته... قدم صورة فارغة لكنيسة بريطانية بدائية ونقية لا تسيطر عليها روما. وإذا التقط أساطير جلاستو نبرى جعل تحول بريطانيا إلى المسيحية زمن الحواريين وبالتحديد بعثة يوسف الذى من الرامة سنة ٦٣م... وفكرة أن هذه كانت الطريق التى جاءت المسيحية بها إلى الجزر البريطانية أول مرة، قيض لها أن تبقى دعامة رئيسية فى التاريخ البروتستانتى والدعاية البروتستانتية على مدى المائة وخمسين سنة التالية تقريبا.

وتُنسب أسطورة لوشيوس إلى مؤلف الأساطير الذى عاش فى العصور الوسطى چيوفرى الماموثى (وهو مؤرخ جمع أسطورة الملك آرثر و دونها فى القرن الثانى عشر) الذى يحكى أن المسيحية جاءت إلى انجلترا فى القرن الثانى بناء على دعوة ذلك الملك، الذى كتب إلى البابا إليوثيريوس يطلب منه إرسال مبشرين. وقد تم إسقاط الجزء الخاص بالبابا فى القصة. ولكن يقول برادلى:

«ثمة عدة أشخاص كبار فى كنيسة انجلترا بعد الإصلاح الدينى، وتحديدا ماثيو بيكر وچون چويل، أخذوا بحماسة مفهوم أن لوشيوس هو أول ملك مسيحى لانجلترا، وجادلوا بأن هذا يوضح أن الكنيسة البريطانية كانت منذ البداية الأولى مؤسسة وطنية تأتى فيها المبادرات والقيادة من الملك وليس من البابا... ومهما كانت اختلافاتهم حول كيف ومتى وصلت الديانة إلى هناك فإن هناك اتفاقًا بين

المؤرخين البروتستانت على أن الكنيسة البريطانية كانت فى الأصل مستقلة وحرة عن النفوذ الرومانى».

وقد حدث التلوث المميت بالبابوية مع وصول أوغسطين سنة ٥٩٧م حسبما يواصل برادلى قصته، والذى كان البابا جريجورى الكبير قد خوله السلطة لأن يرسى هيراركية كنسية جديدة. ترتكز على كانتربورى، كان لابد للأساقفة البريطانيين الموجودين أن يخضعوا لها. وقد صار سبّ أوغسطين علامة مميزة فى تاريخ الكنيسة البروتستانتية على مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان نتيجة لهذه البعثة، كما يقول المؤرخون البروتستانت، أن خضعت المسيحية البريطانية للمرة الأولى لسلطة روما، وساومت الشخصية النقية لعبادتها ومعتقداتها بقبول عبادة الأصنام الرومانية وممارساتها مثل الشمعدانات والملابس والذخائر المقدسة التى لم تكن معروفة حتى ذلك الحين.

ولكن على نحو ما يوضح برادلى لم تكن بروتستانتية المسيحية الكلتية القديمة (إذا ما كان هناك شىء من هذا القبيل) واضحة للكلتيين القدماء. أولا لأن ديانتهم كانت رهبانية إلى حد كبير، والرهبنة ليست من سمات البروتستانت. وكانوا ملتزمين بالخلاص بالديانة وحدها، وبالنسبة لهم كان الوصول إلى السماء عملاً يمتد طول العمر. وكانت المسيحية الكلتية ترتكز إلى حد كبير على تبجيل القديسين المحليين، وهم عادة من الرهبان أو الأساقفة أو كليهما، وهى عبادة كانت تنشأ بعد موتهم، وفيها صلوات تُتلى لهم، وكانت مزاراتهم ورفاتهم محل تبجيل، ويتم تكريس آبار مقدسة بأسمائهم، وتنسب كثير من المعجزات إلى تدخلهم فى السماء. وبدا أن عبادة القديس الكلتى مثل سانت بريچيت متأثرة بقوة بمثال مريم العذراء. وكان فيها مذهب كاثوليكى عن الحضور الحقيقى والمطهر. وهذا كله بالنسبة لأى پروتستانتى مخلص كان سيبدو ضرباً من الكفر. وكذلك لم يتجاهل القادة المسيحيون روما. ففى مجمع هويتبى سنة ٦٦٤م، قبلوا أن من سلطة البابا تثبيت تاريخ عيد الفصح، كما قبلوا أموراً أخرى متنوعة. والواقع أنه على الرغم من أن برادلى لم يضع هذه الرابطة فإن

المسيحية الكلتية تبدأ فى الظهور بشكل مماثل لكاثوليكية العصور الوسطى كما يصورها إيامون دوفى، فى كتابه The Stripping of The Altars.

ومع هذا فإن حمولات أرفف كاملة من الكتب تمت كتابتها منذ القرن السادس عشر فصاعدا لتطوير أو مراجعة النظريات التى قال بها بالى وباكر وچيول، لكى تبين مثلا، أنه إذا لم يكن يوسف الرامى قد جاء بالمسيحية إلى بريطانيا، فلابد إذن أن القديس بولس الرسول، وأن المسيحية الأيرلندية كانت پروتستانتية فى الأصل، أو أن القديسين الكلت القدماء كانوا فى الحقيقة من البريسبتاريين الاسكتلنديين الطيبين. وأى دليل على العكس من ذلك كان يتم تجاهله ببساطة أو يتم استبعاده ومثل هذا الشرح يفترض أن الاستخدام الكلتى لكلمة صلاة القداس غير البروتستانتية للدلالة على الصلاة الجماعية لم تكن مشتقة فى الحقيقة من الصيغة اللاتينية Itemissa التى كانت تختم بها صلاة القداس الكاثوليكية، ولكنها كانت تعديلاً لكلمة Mistletoe التى كانت تستخدم فى الطقوس الوثنية وأخذت فى المسيحية الكلتية حينما تم القضاء على الوثنية.

ومن وجهة النظر الإنجليزية فإن الاستنتاج الأكثر أهمية الذى نخرج به من إعادة كتابة التاريخ هذه، هو أن الرب قد حفظ بعنايته العقيدة البروتستانتية منذ زمن المسيح، والتى هى الآن، تحت قيادة الملوك والملكات البروتستانت (بدءًا من هنرى) قد أعيدت إلى مكانها الصحيح. وفى ضوء هذه الحقيقة المدهشة، كيف كان يمكن وصف انجلترا بصفة أخرى غير الشعب المختار، وبأنها كهنة ملكيون؟ وأنها بالطبع هى الأمة الوحيدة.

* * *